

الدكتور الجليند:

الأمة بحاجة إلى تجديد تعلم العقيدة

على ضوء دراستها من الكتاب والسنة

■ أجرى الحوار: عمرو توفيق(*)

■ العقيدة صِمَام الأمان للنفس الإنسانية.
■ ضاعت فلسطين بتغييب العقيدة.
■ كُتُب العقيدة تمنع من الانحراف العقدي.
■ القرآن والسنة أفضل من يخبرنا عن الله.
■ أدعو إلى دراسة العقيدة من القرآن والسنة.
■ ابن تيمية أغناني عن الكثير من العلماء والباحثين.
■ لا بدَّ من تحرير المصطلحات.
■ المسلم يواجه محاولات المسخ والتشويه.

هذه أبرز النقاط التي تحدَّث عنها فضيلة الدكتور محمد السيد الجليند أستاذ العقيدة بكلية دار العلوم بالقاهرة، ورئيس قسم الفلسفة سابقاً، والأستاذ في جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سابقاً.

وطالب الدكتور الجليند في حواره مع مجلة (البيان) بضرورة وضع كتب جديدة ومناهج علمية لتدريس علم العقيدة، تعتمد بالأساس على القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة في شرح مباحث علم العقيدة وقضاياه، وأوضح أن كتب علم العقيدة وضعت رداً على الفرق المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة؛ لذلك فهي تحرس العقيدة الإسلامية وتجادل عنها بالحجج والبراهين العقلية والنقلية، لكنها لا تُنمي الإيمان في القلب بالمستوى المطلوب، وهو ما يقوم به القرآن والسنة خير القيام.

البيان: في ظل طغيان المادة في العصر الحديث؛ ما أهمية العقيدة في حياة الإنسان بشكل عام، والمسلم بشكل خاص؟

■ بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله..

العقيدة هي صِمَام الأمان للنفس الإنسانية، فأي نفس صاحبة دين أو ليست بصاحبة دين؛ تجدها تحتاج إلى الاعتقاد، إنها حاجة ذاتية كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب؛ لذلك فعلى مرِّ التاريخ لا توجد أمة على ظهر الأرض إلا ولها عقيدة؛ سواء كانت عقيدة صحيحة أو فاسدة، فالمهم أن كل أمة لها ما تعتقده وتؤمن به؛ سواء كان صواباً من وجهة نظرك أو خطأ، لكنه أمر ثابت اجتماعياً وتاريخياً ونفسياً؛ لذلك لا تجد أمةً أو شعباً إلا وله مكان يمارس فيه طقوسه أو شعائره الدينية، ويسمى هذا المكان مسجداً عند المسلمين، أو كنيسة عند النصارى، أو كنيساً عند اليهود، أو معبداً أو خلوة... فلا تجد أمة إلا ولها هذا المكان تمارس فيه نشاطها الديني.

وعلماء الأديان يقسِّمونها إلى: دين سماوي، ودين وضعي. والدين الوضعي

(*) مراسل مجلة البيان في مصر.

هو ما لم ينزل به وحي من السماء، ولكن الأمم والدول والشعوب التي لم يصلها نور النبوة اخترعت لها ديناً وعقيدة، وهذه حقيقة مسلَّم بها؛ فالأمة التي لا دين لها تبحث لها عن دين تعتقده.

في الفلسفات القديمة مثل: الفرعونية واليونانية والصينية والفارسية... تعدَّدت الديانات وتعدَّدت الآلهة، وهذا يشير - كما أسلفنا - إلى أن الاعتقاد أمر غريزي طبيعي في النفس الإنسانية تحتاج إليه النفس كما يحتاج الجسم إلى الطعام والشراب، فالطعام والشراب غذاء مادي للجسم المادي، لكن الاعتقاد هو الغذاء الروحي للنفس الإنسانية. وتفسير هذا أن الإنسان ليس وحده فارس الحلبة وإنما هو جزء ضئيل جداً من أجزاء هذا العالم، والإنسان في حاجة إلى من يحميه من هذا العالم المتوحش، فهذه الحاجة تدفع النفس الإنسانية إلى البحث عمن يحميها من غوائل هذا العالم، فتلجأ إلى الاعتقاد فيمن تتوسَّم فيه أنه يحميها، فتجد الطفل حين ولادته مرتبطاً بأمه؛ لاعتقاده أنها تحميه، فإذا شبَّ عن الطوق فقد ينتقل الاعتقاد في الحماية إلى الأب، وهكذا... لذلك تجد أن الأمم التي لم تؤمن بوحي السماء قد وضعت لنفسها عقيدة آمنت بها ودافعت عنها وحاربت من أجلها.

لقد جاء الدين السماوي فصحَّح هذا المسار وأخذ بالعقل والنفس إلى تصحيح الاعتقاد في أن هناك رباً خالقاً وإلهاً معبوداً، ونزل الوحي ليقود العقل البشري إلى الإيمان بأن الخالق هو الله، وأن الرازق هو الله، وأن من ينفع ويضر هو الله وحده.

وقد أورد القرآن الكريم العديد من الأسئلة التي تحتفل بهذه القضية في القرآن المكي؛ لينتشل الإنسان من حيرة البحث عن العقيدة الصحيحة إلى برِّ الأمان من خلال إيمانه التام بالوحي السماوي، فالعقيدة هي صِمَام الأمان للنفس الإنسانية، ولا يستطيع الإنسان الحياة بدون اعتقاد.

بالنسبة للمسلم نجد أن الإسلام جاء بعد اليهودية والنصرانية، فقد جاءت التوراة الصحيحة لتقود بني إسرائيل إلى تصحيح العقيدة في الألوهية والربوبية لما قال لهم فرعون ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، لكن تحريف اليهود للدين أدَّى إلى الانحراف نحو المادية؛ فأفسدت العقيدة التي جاء بها موسى عليه السلام. ثم جاء عيسى - عليه السلام - ليصحح ما أفسده اليهود، لكن ظهور «شاؤول الطرطوسي» أفسد على النصارى عقيدتهم ومال بها إلى ما يشبه العدم، وقال بحلول اللاهوت في الناسوت واختراع نظرية الأقانيم الثلاثة.

" الاعتقاد أمر غريزي طبيعي في النفس الإنسانية تحتاج إليه النفس كما يحتاج الجسم إلى الطعام والشراب "

لذلك جاء الإسلام ليصحِّح ما أفسده اليهود والنصارى، جاء ليوضح أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وقرَّر صفات الكمال الإلهية، وطلب من العقل البشري أن يبدأ مسيرته في الاعتقاد بالله رباً خالقاً وإلهاً معبوداً؛ من خلال نورين أساسيين زوَّد الله بهما الإنسان، وهما: نور الوحي، ونور العقل.

هذان النوران يقولان للإنسان: انظر في ما حولك لتكتشف أن ما حولك صنعة، وأن هذه الصنعة لا بدَّ لها من صانع، وانظر في نفسك تجد فيها صفات جعلتك مميزاً عن بقية الكائنات الأخرى؛ فأنت تسمع وتبصر وتعلم وحي وتريد، وهذه صفات مستمدة من علم مطلق وإرادة مطلقة وحياة مطلقة ووجود مطلق يتصف بها مَنْ خلقك.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد والدعوات إلى ذلك التفكر: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧]، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]... هذه كلها آيات قرآنية منها ما نزل في مكة والمدينة لتلفت نظر العقل الإنساني إلى أن هذا العالم والإنسان هو صنعة صنعها الخالق - تبارك وتعالى - وأن ما في هذا العالم من إبداع وإتقان من آثار الإله الخالق، وإذا أراد الإنسان أن يصل بعقله إلى تصوُّر هذا الخالق فلينظر إلى صفات الكمال والجلال الموجودة في هذه الصنعة، ولذلك ركَّز القرآن هنا في نقطتين أساسيتين: الأولى: النظر العقلي في الآفاق في العالم المادي والحسي. والثانية: النظر في النفس الإنسانية؛ ليخرج الإنسان بعد هذا النظر والتفكر ليقول: سبحان من خلق. وأدعو المسلمين إلى قراءة سورتي الأنعام والنحل وتدبُّرهما؛ ليقف المسلم على ما فيهما من آيات الجلال والجمال

الإلهي، والدلائل القاطعة على وحدانية الخالق عز وجل.

البيان: كيف تؤثر العقيدة في الصراعات البشرية؛ مثل: قضية فلسطين؛ خاصة أن لكم كتاباً حول الجذور التوراتية لقضية فلسطين والصراع مع اليهود؟

▪ المعركة بيننا وبين اليهود يرجع عدم التكافؤ فيها إلى العقيدة؛ فاليهودي يحاربنا بعقيدته، هذه العقيدة يؤمن بها ويحارب من أجلها، في الوقت الذي غيَّب المسلمون عامل العقيدة عن ساحة المعركة، وحاربوا هذا العدو تحت شعار القومية والوطنية والزعامات الزائفة.

إن سلاح العقيدة في المعركة أمضى من السيف والصاروخ؛ لأن سلاح العقيدة يعني أن معك جندياً جاء لينتصر أو ليموت دفاعاً عن عقيدته، وبدون العقيدة يكون الجندي إنساناً هشّاً وفارغاً، فالفرق كبير بين الجانبين؛ لذلك فالصهيونية الآن كسبت الجولات التي حاربت فيها من منطلق الدفاع عن العقيدة.

وقد استحضرت في هذا الكتاب كثيراً من النصوص التي رفعها اليهود في كل معاركهم معنا، فهم يؤمنون بأنهم أصحاب أرض وأنهم شعب الله المختار وأن هذه الأرض سوف ينزل فيها المسيح ليحكم العالم؛ ولذلك على المسيحيين دعمهم لينزل المسيح ويقيم المملكة، وهو ما صرَّح به (كارتر) و (بيجن) في كامب ديفيد؛ لذلك كانت نتيجة تغييب العقيدة ما يشاهده الجميع.

وكان الاستثناء الوحيد في حرب أكتوبر (رمضان) عندما استجيشت الروح الإسلامية وبدأت العقيدة تتحرك في القلوب وكان النداء الفطري: الله أكبر، فيا ليتنا نعي هذا الدرس جيداً!

البيان: هل هناك فرق بين العقيدة بوصفها اعتقاداً وإيماناً قلبياً وبين علم العقيدة بوصفه منهجاً وأساساً نظرياً؟

▪ العقيدة بوصفها اعتقاداً هي عمل قلبي له حيثياته التي لا يتم الإيمان الصحيح إلا بها؛ لذلك نجد علماء العقيدة عرَّفوا الاعتقاد الصحيح بأنه: نُطق باللسان وتصديق بالجَنان وعمل بالأركان، فهو اعتقاد قلبي يقيني جازم لا يرقى إليه الشك، وتعبير عن هذه العقيدة باللسان وهو النطق بالشهادتين، وأن ينفذ ما أمر الله به ورسوله بالجوارح والأركان، وهذا هو الاعتقاد الكامل الصحيح، هذا الاعتقاد يعدّ عهداً بين العبد وربه، وهذا العهد له مجموعة من الحيثيات تسمى: شُعَب الايمان، أعلاها: لا إله الا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، وهذه الشُّعب تشمل حياة الإنسان بالكامل؛ في صباحه ومسائه، وفي حركته وسكونه، وهذه النظرة الشمولية تجعل حياة المسلم مشمولة برعاية الله سبحانه وتعالى؛ لذلك تجد حياة المسلم مشمولة بأنوار العقيدة؛ فإذا انتقص المسلم شيئاً من هذه الشُّعب فهذا يخدش كمال الإيمان؛ لذلك فإن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

أما علم العقيدة فهو نشأ لتربية المسلم على معرفة كاملة بصحيح العقيدة الإسلامية، صافية نقية خالصة مما شابها من أمور بدعية خارجة عن السنة النبوية تتصل بقضية الألوهية وقضية النبوة وقضية البعث؛ هذه المناحي أو القضايا الكبرى الثلاث. ففي قضية الألوهية ندرس أدلة وجود الله وأدلة التوحيد، وندرس قضية الصفات الإلهية، وندرس علاقة الذات بالصفات، وندرس أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل الشهير، فهذه تسمَّى مسائل الإيمان، حيث ندرس مع كل مسألة دلائلها وبراهينها من القرآن والسنة ومن دلائل العقل الصريحة.

فعلم العقيدة ندرس من خلاله مفردات العقيدة ومسائلها ودلائلها وبراهينها، أما الاعتقاد فهو العقيدة بوصفه مبدأ؛ فهو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح والأركان.

والمسلم مطالَب بأن يعرف أركان العقيدة على سبيل الإجمال، وليس على تفاصيلها؛ لأن في ذلك مشقة على عوام المسلمين؛ لذلك لا يجب أن نورد تفاصيل هذه المسائل على عموم المسلمين؛ فهم غير مطالَبين بالتفاصيل والدلائل والبراهين، لكنهم مطالَبون بالاقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الأطهار، والإيمان بما ورد في الكتاب والسنة على سبيل الإجمال؛ فهم مطالبون بالعقيدة وليس بعلم العقيدة، وهذا الإيمان المجمل هو ما يسمى بالإيمان الفطري، والذي قال عنه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: «الويل لي إن لم أمت على دين العجائز».

البيان: كيف نشأ هذا العلم؟ وكيف تطور على مرِّ التاريخ الإسلامي؟

▪ نشأ علم الكلام في منتصف القرن الثاني الهجري، وبعضهم يرجعه إلى واصل بن عطاء حينما ثارت قضية



مرتكب الكبيرة في مجلس الحسن البصري. نشأ علم الكلام أساساً حين ثار خلاف بين المسلمين من الصحابة والتابعين وبين أهل الأمم الأخرى الذين دخلوا الإسلام حديثاً وعندهم بقايا الديانات السابقة التي كانوا عليها قبل دخولهم الإسلام، فأثيرت قضايا جديدة لم تكن مثارة في البيئة الإسلامية، مثل: البحث في قضية الإمامة؛ ومَن الأَوْلى بإمامة المسلمين؟ وهل الإمامة نصَّ عليها النبي ﷺ أم هي مجموعة أوصاف من اكتملت فيه يصلح أن يكون إماماً للمسلمين؟ وثارت قضية مرتكب الكبيرة في مجلس الحسن البصري: هل هو مؤمن أم كافر؟ والفتنة الكبرى التي ترتَّب عليها مقتل عثمان وعلي - رضي الله عنهما - أثارت مجموعة من المشكلات بعضها يتصل بالعقيدة مباشرة.

هذه الأحداث الكبرى أثارت عند متأخري الصحابة وجيل التابعين مجموعة من الأسئلة؛ فبدأ المسلمون يبحثون عن إجابات لها في دواوين الحديث والقرآن الكريم، وبدأ عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء من جهة، والحسن البصري وسفيان الثوري وابن عيينة ومجموعة من كبار المحدثين من الجهة الأخرى يتناولون هذه المسائل؛ كل بمنهجه؛ فالمعتزلة كان لهم منهج، والحسن البصري والمحدثون كان لهم منهج، وكلٌّ سار في منهجه بطريقته، لكن هدفهم جميعاً الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وينبغي أن نؤكد هذه القضية، أن الكل كان يبغي الدفاع عن العقيدة؛ فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ وزلَّ عن الطريق.

في القرن الثالث الهجري بدأ بعض المحدثين بوضع كتب تسمى السنة، ففي هذه المدة وُضعت مجموعة من الكتب، واختار لها التابعون عناوين لها دلالة، فلما انتشرت البدع من تشيُّع واعتزال وتصوف... وغيرها بدأ العلماء يضعون كتباً توضح الفرق بين السنة والبدعة من الأعمال والأقوال والاعتقاد، فسموا كتباً كثيرة باسم السنة أي: أن ما عداها فهو بدعة، فظهر كتاب السنة للإمام أحمد بن حنبل، والسنة للطلمنكي. وبعض الكتب حمل عنوان الإبانة، مثل: الإبانة عن أصول الديانة لابن بطة، والإبانة لأبي الحسن الأشعري. وظهرت كتب تحمل عناوين الرد، مثل: الرد على الجهمية، والرد على المجبرة، والرد على بشر المريسي. وعناوين هذه الكتب لها دلالات تدل على أن كل كتاب يرد على بدعة معينة أو مجموعة من البدع تخالف السنَّة، وفي الوقت نفسه يبين أصول العقيدة الإسلامية. وبدأ من هنا التأليف في علم العقيدة. ومن أقدم الكتب التي تناولت العقيدة هو «الفقه الأكبر» لأبي حنيفة.

ثم بدأت تظهر مسائل جديدة مع تطور الزمن وانتشار الفتح الإسلامي واتِّساع رقعة الدولة الإسلامية، وكلما ظهرت مشكلة بحث لها العلماء عن حلٍّ وإجابات، حتى ظهرت (دعوى خلق القرآن) التي عدَّها العلماء أهم القضايا؛ لأنها تتعلق بكلام الله عز وجل؛ لذلك يرى بعضهم أن علم الكلام سمِّي بذلك لاهتمامه بقضية كلام الله، وإن كنت لا أوافق على هذا الرأي.

في هذه المدة ظهر العديد من الفرق، مثل: القدرية والجهمية والأشاعرة والشيعة والخوارج، وكل فرقة تفرَّعت عنها جذور صغيرة نمت فيما بعد، وأصبح لكل مدرسة قواعد وأصول ومبادئ يتسلَّمها جيل عن جيل، لكن سلف الأمة تميز منهجهم بين هذه الفرق المختلفة بأنه ظل معتصماً بالكتاب والسنة في مسائل العقيدة يدافع عنها بالمؤلفات والمناظرات، وظل محتفظاً بنقائه وصفائه يتوارثه جيل بعد جيل؛ حيث تفرَّغ بعضهم للكتابة المنهجة في هذه القضايا، مثل: الإمام أبو الحسن الأشعري الذي وضع كتابه الشهير «الإبانة عن أصول الديانة» ورسالته الشهيرة «رسالة إلى أهل الثغر» والمسماة «أصول أهل السنة والجماعة» التي أحتسبُ عند الله - تعالى - أنني حققتها ونشرتها منذ ١٥ عاماً؛ حيث بيَّن فيها أصول الديانة وما أجمع عليه سلف الأمة. وظل علماء السلف يتوارثون ويطورون هذا المنهج، حتى وصل إلى قمته في القرنين السابع

والثامن الهجريين، حيث مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية التي تُعدُّ خير من مثَّل منهج أهل السنة والجماعة.

البيان: يرى بعضهم أن علم العقيدة بشكله الحالي يمنع من الانحراف، لكنه لا ينمِّي الإيمان في القلوب، حيث وضعه السلف للردِّ على الفرق المنحرفة، وأنه أفضل من يتحدث عن الله - عز وجل - هو الله - عز وجل - ورسوله ﷺ: فهل توافق على ذلك؟ وكيف كان النبي ﷺ يعلِّم الصحابة العقيدة؟

▪ نعم هذا صحيح! فنحن بحاجة إلى كتب جديدة تبني العقيدة، وهذه القضية أشار إليها أبو حامد الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) وكتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) فكُتُبُ العقيدة تلك بشكلها الذي ورثناه من تراث المتكلمين لا تؤسس العقيدة والإيمان في القلوب، وإنما تدافع عن العقيدة ضد المنحرفين عنها، وبمنهج جدلي وبرهاني لكنه لا يؤسس العقيدة الصحيحة.

"ليست هناك قضية عقدية قدَّمها القرآن الكريم إلا وقدَّم بين يديها برهانها العقلي والنقلي صافياً من كل شائبة نقياً شفافاً"

إنما العقيدة يأخذها المسلم من الكتاب والسنة؛ لأن خير من يخبر عن الله - سبحانه وتعالى - هو الله ورسوله ﷺ. وقد جرَّبت هذا شخصياً؛ فليست هناك قضية عقدية قدَّمها القرآن الكريم إلا وقدَّم بين يديها برهانها العقلي والنقلي صافياً من كل شائبة نقياً شفافاً. وإذا انتقلت إلى كتب علم الكلام[1] لتبحث هذه القضية ذاتها؛ تجدها معقدة ومثيرة للشكوك، وتزلزل اليقين؛ لذلك أُدرِّس العقيدة للطلبة في دار العلوم من الكتاب والسنة، وإذا ظهرت مشكلة نريد التحاور حولها؛ نستحضر هنا براهين المتكلمين الصحيحة لبلورة هذه القضية والدفاع عنها، لكن لا أجعل آراء المتكلمين هي المادة العلمية للمنهج الدراسي؛ لأن آراء المتكلمين قيلت في ظرف تاريخي معين، وكان هذا الرأي رداً على مشكلة معينة، ووراء هذا الرأي خلفية ثقافية للمؤلف توضح هذا الرأي وتبلوره، ولكن - للأسف - نحن نأخذ هذا الرأي دون الإلمام بهذه الخلفية الثقافية؛ لذلك يحدث الخلل والزلل في الاعتقاد، ومن هنا تأتي أهمية تدريس العقيدة من الكتاب والسنة مباشرة. وقد دعوت منذ سنوات - وما زلت - إلى تجديد مناهج تدريس العقيدة، ولا بد أن نفصل بين العقيدة ومفرداتها وبين علم العقيدة أو علم الكلام الذي عرَّفه العلماء بأنه: العلم الذي يُقتدَر معه على الدفاع عن العقيدة الإسلامية بالبراهين العقلية.

لقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحفظون عشر آيات من القرآن ولا يتجاوزونها حتى يتعلموا علمها ويعملوا عملها، فعلموا من الرسول كل مسائل العقيدة، ولأن العقيدة لها رصيد فطري فلم يحتج الصحابة إلى السؤال حول الصواب والخطأ، وحديث الجارية مشهور حيث سألها النبي ﷺ: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال ﷺ: إنها مؤمنة، فهذه إجابة فطرية بعيداً عن متاهات المتكلمين في هذه القضية؛ مثل: هل العلو يقتضي الجهة وهل يقتضي الجسمية؟ فهذه الأسئلة والمفاهيم المأخوذة من عالم الشهادة أرادوا أن يطبقوها على عالم الغيب، وهذه مصيبة علم الكلام.

لكن - بفضل الله تعالى - اختفت هذه الجدليات من ساحة الأمة، وانحصرت في جانب الأكاديميين والمثقفين.

كنتُ في مناقشة رسالة ماجستير في الأزهر حول المسائل الكلامية بين الزمخشري والسعد؛ فطرحتُ هذه القضية، وقلت: إن الزمخشري معتزلي والسعد أشعري، وأنتم تعرفون أنني على نهج أهل السنة والجماعة؛ فماذا علينا لو تناسينا هذه المذاهب ودرسنا العقيدة بلا مذاهب، وجئنا بآيات العقيدة وأحاديثها ودرَّسناها للطلبة، ونأخذ قضايا علم العقيدة وندرسها مسألة مسألة من خلال الكتاب والسنة، ونخرج من دائرة الخلاف والصراع؛ خاصة أن طلاب الدراسات العليا يميلون إلى من يدرسون كتبه ويتعصبون له؛ فنجد في النهاية طالباً أشعرياً وآخر معتزلياً وهكذا...

كما كنتُ في مؤتمر في مكة المكرمة الصيف الماضي، وجلست مع أساتذة العقيدة بجامعة أم القرى، وطرحت عليهم هذا الموضوع؛ فماذا يستفيد الطالب من دراسة خلافات المتكلمين التي مضى عليها ١٤ قرناً من الزمان؟ والآن لدينا مشكلات كبرى تحتاج إلى

(١) من المعلوم بداهة أن السلف الصالح ذمّوا علم الكلام وبيّنوا ما فيه من المزالق والانحرافات، وما يورثه من الشكوك والشبهات. ينظر مثلاً: ذم الكلام، للهروي.

معالجة؛ وعلى سبيل المثال: قضية تاريخية الإسلام، ويتفرَّع عنها تاريخية القرآن، وتاريخية الوحي؛ هذه القضية تزعم أن الإسلام والقرآن والوحي هي ظواهر تاريخية ظهرت في مناسبة تاريخية اجتماعية ثقافية معينة وانتهت بانتهاء وقتها. وهناك مشكلة العَلْمانية وانتشارها في النخبة والطبقة المثقفة التي تشبَّعت بالعَلْمانية الأوروبية وتحاول ترسيخها في المجتمعات الإسلامية، وما يتفرَّع عنها من قضية فصل الدين عن الدنيا، أليست هذه من صميم نوازل العقيدة الإسلامية؟ ومشكلة غياب المسلمين عن السنن الكونية مع أنها أمر إلهي... وغيرها؛ ففي تصوري أنها أهم لواقعنا الحالي، وهذه المشكلات لا بد أن تناقَش مناقشة علمية جادة في رسائل الماجستير والدكتوراه، والحمد لله تكوَّنت في دار العلوم معالم هذه المدرسة البحثية.

البيان: لفضيلتكم علاقة قديمة ومستمرة مع شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فكيف بدأت هذه العلاقة؟

■ تعود هذه العلاقة إلى أكثر من ٤٠ عاماً وأنا طالب في كلية دار العلوم، فقد كان أستاذنا الدكتور محمد رشاد سالم، والدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود قاسم - رحمهم الله - يتردَّدون على دار العلوم لإلقاء المحاضرات، ولفت نظري أن الدكتور محمد رشاد سالم كان يُعِدُّ الدكتوراه حول كتاب (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) لابن تيمية في إنجلترا. وفي السنة التمهيدية للماجستير سنة ١٩٦٨م كنا ندرس مع الدكتور محمود قاسم، وحدث حوار مع أحد الزملاء حول كتاب الغزالي «إلجام العوام عن علم الكلام» ونقد الغزالي لعلم الكلام، وطلب مني الدكتور محمود قاسم بحثاً عن كتاب (روضة الطالبين) للغزالي ومقارنته مع كتاب (إلجام العوام عن علم الكلام)، وفي أثناء هذا البحث وجدت الغزالي يتحدث عن «قانون التأويل» وكنت في هذه المدة أقرأ لابن تيمية قراءات عادية غير مقصودة، ووجدت له رسالة «الإكليل في المتشابه والتأويل» ولفت نظري عقلية هذا الرجل في بُعْد نظره من خلال تفرقته الدقيقة بين كلمتي التفسير والتأويل؛ فبحثت عن كتب أخرى لابن تيمية.

وكانت هناك مكتبة تسمى مكتبة «صبيح» في الأزهر تطبع مجموعة رسائل ابن تيمية في مجلدين مثل: «الفرقان بين الحق والباطل»، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، و«القضاء والقدر».. فاستهوتني هذه الرسائل فقرأتها كلها، ووجدت في رسائل هذا الرجل عقلية غير عادية؛ خاصة حين يتناول قضية؛ فكأنك أمام جرَّاح بيده مبضع يشرِّح الجسم الذي أمامه بدقة وأمانة؛ ليكتشف علة هذا الجسم، ومن ثم يوصلي بالدواء المناسب؛ لذا تابعت القراءة لابن تيمية؛ فذهبت إلى أنصار السنة حيث كان الاهتمام بتراث ابن تيمية؛ فوجدت كتاب «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» في جزئين طبعه فضيلة الشيخ حامد الفقي - رحمه الله - فاشتريت الكتاب وعكفت عليه، فازداد إعجابي وانبهاري بهذا الرجل الفذ؛ خاصة رؤيته لشمول الإسلام ومقاصد القرآن والسنة، وتحليلاته اللغوية، وتحليلاته للمصطلحات اليونانية التي دخلت في علم العقيدة فأفسدته، فكان هذا أول تعرُّفي إلى فكر شيخ الإسلام ابن تيمية.

بعد اجتياز المرحلة التمهيدية طلبت من الدكتور محمود قاسم أن أسجِّل رسالة الماجستير في قضية التأويل عند ابن تيمية؛ فذهب ليسأل الدكتور عبد الحليم محمود وكان من الصوفية، ومن المعروف موقف الصوفية من ابن تيمية، فقال: أما أنا بوصفي صوفياً فلا أكره ابن تيمية، لكن ماذا ستفعل مع الدكتور النشار وهو إمام الأشاعرة ويكره ابن تيمية، فجاء الدكتور قاسم وقال لي: هل أنت مقتنع بموضوعك يا بني؟! قلت: نعم! فقال: توكل على الله. وواجهتني مشكلة المراجع؛ لأن كتب ابن تيمية لم تكن منتشرة مثل الآن، لكن الدكتور عبد الحليم محمود - رحمه الله - كان لديه مجموعة الفتاوى لابن تيمية من إهداء الملك فيصل، ففتح لي مكتبته بالكامل للاستفادة منها في أي وقت، وقد استفدت بشدة من الفتاوى بالإضافة إلى مجموعة الرسائل التي حصلت عليها كما ذكرت سابقاً، وأيضاً وجدت في مكتبة دار العلوم مجموعة الرسائل والمسائل التي طبعها الشيخ رشيد رضا، وبذلك اكتمل لديَّ معظم تراث شيخ الإسلام ابن تيمية؛ عليه رحمة الله.

في هذه المدة طلب مني فضيلة الدكتور محمد رشاد سالم - رحمه الله - مشاركته في نشر كتاب (درء تعارض العقل والنقل) لابن تيمية، وبدأنا العمل واكتشفنا أن لابن تيمية كلاماً كثيراً في تفسير القرآن الكريم، لكن الدكتور محمد رشاد سالم سافر إلى السعودية وأكمل الكتاب في جامعة الإمام محمد

بن ســعود، بينما تفرَّغت لجمع تفسير ابن تيمية وسمَّيته (دقائق التفسير لابن تيمية)، ثم كتـاب التوحيد مع إخلاص العمـل والوجه لله عز وجل، ورسـالة الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر، ثم كتاب «الانتصار في ذكـر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين شيخ الإسلام ابـن تيميـة» لابن عبـد الهادي، وهذا هو الاسم الأصلي للكتاب، وكان الشيخ حامـد الفقي قد طبعه ســابقاً بعنوان «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية»... ثم استمرت الرحلة مع شيخ الإسلام رحمه الله.

البيان: مـن خـلال الرحلـة الطويلـة مع مدرسـة ابـن تيميـة؛ هـل يمكنكم اختصـار أهـم السِّمَات الفكريـة لمنهجه؟ وهل نفتقـد إلى رموز علمية بحجم شيخ الإسلام؟

▪ مـن أهمِّ سِـمَات منهج شـيخ الإســلام محاربة البدع؛ حيث يرى أنها خطر شـديد على الإسلام وعلى حياة المسـلمين، وعلَّل ذلك بأسـباب كثيرة جداً.

ويظـن بعضهـم أنه يكــره مفهوم التصوف ومنهجه القائـم على التربية والتزكيـة والارتقـاء بالنفـس، وهذا مفهوم خاطئ؛ فشيخ الإسلام يكره بدع التصوف والمتصوفة وليس أصل الفكرة ومفهومها، بل إنه يجعل التزكية والارتقاء بالنفس من صِمَامات الأمان للإســلام والمسـلمين، وألَّف في ذلـك: (أمراض القلوب وشـفاؤها)، و (التحفة العراقية في الأعمال القلبيـة) كما أن له كلاماً رائعاً في أعمال القلوب، وله قاعدة في المحبة يجب أن تكتب بماء الذهب، وهو ما لا نجده عند كبار المتصوفة.

كمـا يتميز منهج شـيخ الإسـلام بالدقة والأمانة فـي النقل والتبحُّر في العلوم، فهـو حاور المتكلمـين ببراعة، وحاور الفلاسـفة كما لـو كان واحداً منهم، وحـاور المتصوفة والمناطقة، ومع كل هؤلاء تجده - رحمـه الله - خبيراً بالقضية التي يتحدث فيها كأنه لا يعلم غيرها من الدنيا.

أيضـاً من أهمِّ سـمات منهجه هو تحرير المصطلحات قبـل أن يقبلها أو يرفضهـا؛ خاصة في القضايا العقدية؛ فقبل أن يقبل الـرأي أو يرفضه يحلِّل المصطلح الـذي يسـتخدمه محاوره، ويقول له: مـاذا تريد بهذه الكلمة؛ فإن أراد بها حقاً قبله وقـال له: إن اللفظ القرآني أدلّ وأوضح من هذا المصطلح؛ وهنـا تنتهي القضيـة، وإن أراد معنى باطلاً رفض ذلك وبيَّن خطأه وخطورته بمنتهى الدقة والأمانة العلمية.

والإنصـاف يُعَـدُّ مـن السـمات الواضحة عند شيخ الإسلام؛ فمع شدة خصومته وإنكاره للحلَّاج؛ لما سُئل: على ما مات الحلاج؟ لم يتهمه بالكفر، ولكن قال: الله أعلم بحاله.

كمـا أنه عالـم موسـوعي خبير بالتراث الإسلامي على مرِّ العصور التي سبقته كما لو كان معاصراً لكل أحداث التاريخ الإسـلامي؛ فلا يذكر واقعة إلا ويسـتوفيها حقـها؛ مـا لها وما عليها؛ تأييداً أو تفنيداً، كذلك علمه بالحديث وبدلائل الآيات القرآنية، ولذلك يمكنني القول بكل صراحة: إن شـيخ الإسلام - رحمه اللـه - قد كفاني وأغناني عن القراءة لكثير من العلماء والباحثين ووفَّر عليَّ وقتاً كثيراً.

وكان - رحمه الله - شجاعاً، مطبقاً لما يعتقده على نفسه أولاً، فكانت آراؤه انعكاسـاً لسلوكه؛ فإذا آمن بقضية كان أول المطبقين لها في الواقع.

ومن أوضح النقاط في مدرسة شيخ الإسلام: معالجته لقضية العقل والنقل؛ فبعبـارة مختصرة جداً: أوضح شـيخ الإسلام أن العقل والنقل الصحيح نوران من نور الله زوَّد الله بهما الإنسان، وهما وسـيلتان لغاية واحدة وهــي الوصول إلى الحـق في الاعتقاد والعمل والقول، والوسـائل التي تؤدي إلى غاية واحدة منطقيـاً لا يمكن أن يعـارض بعضها بعضاً، وإنما يؤيـد بعضها بعضاً، فإذا ظهر أمام الإنسان أن هناك تعارضاً بين مـا يراه معقولاً وبين مـا معه من نقل؛ فعليه أن ينظر فيهما معاً؛ فإما أن يكون النقل غير صحيـح أو يكون ما يدعيه معقـولاً ليس بالمعقول، لكن أن يكون ما معه معقولاً صريحاً ونقلاً صحيحاً فلا يمكن أن يتعارضا معاً. لقد عالج شيخ الإسـلام ذلك في الكتاب الشهير «درء تعارض العقل والنقل»، وقد أخذتُ بعض القواعد التي لخصت منهج هذا الكتاب وأخرجتهـا فـي كتيب صغيـر بعنوان «تقريب درء تعارض العقل والنقل».

وبفضل الله لا تخلو الأمة من علماء عاملين على طريقة شيخ الإسلام رحمه الله؛ فينبغي أن نكون متفائلين؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يحفظ هذا الدين، ويحملـه في كل عصر عدولُه، والأمة لا تخلو من هؤلاء العـدول على كل حال، ففي كل بلد من يحمل عبء هذه العلوم على قـدر اسـتطاعته، والقضية أولاً وأخيراً كما قال الرسول - عليه الصلاة والسـلام -: إن الله يبعـث لهذه الأمة على رأس كل مائة سـنة من يجدِّد لها

دينهـا[1]، وقد لا يوجـد الآن من يقود الأمة على المستوى العام، لكننا نجد في كل قطر من يحمل همَّ هذه الأمة ويحمل عبء هذا العلم.

البيان: تحدثتم عن قضية تحرير المصطلحات عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فكيف تنظرون إلى هذه القضية في الواقع الحالي؟

▪ هذه من أخطر قضايا المسلمين في واقعنا المعاصر، وأنا أدعو إلى عدم استخدام المصطلحات دون توضيح معناها ودلالتها؛ فعلى سبيل المثال: عندما نسمع كلمة «تنوير» أو «عَلْمانية»؛ ننبهر بها؛ فمن يكره التنوير أو العلم؟ لكن ما هو مضمون التنوير والعَلْمانية؟

لديَّ كتاب «فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي» - لعلَّه العدد الثالث أو الرابع من سلسلة تصحيح المفاهيم - تناولتُ فيه قضية التنوير. ولقد نُقلت كلمات - مثل: «التنوير» و«العَلْمانية» - من الحضارة الغربية وترددت خلال قرن من الزمان، وخدعوا القارئ بأن العَلْمانية تعني محبة العلم والاعتصام به، وأن التنوير يعني العلم والحرية، ونسوا أو تناسوا أن هذه المصطلحات كانت لها دلالة في أوروبا تختلف عن الدلالة التي نقلوها إلينا، ولما بدؤوا إشاعتها وتطبيقها في الواقع نقلوا المشكلات التي أفرزتها هذه المصطلحات إلينا.

إن أهمَّ هذه المشكلات أن الكنيسة كانت ضد العلم، ولما تخلَّص العلماء من سطوة الكنيسة انتصر العلم، وعندنا يزعمون أن سبب تخلُّف المسلمين هو الدين؛ فلكي نتخلص من التخلُّف والرجعية يجب التخلص من الدين كما تخلصت أوروبا من دينها، وهذا هو المعنى الحقيقي للعَلْمانية.

وكلمة التنوير معناها في أوروبا الثورة على الدين، ورجال الدين هم رموز التخلف؛ لذلك لا بدَّ من أن نتخلص من الدين ورجال الدين عندنا، دون أن يتساءلوا: هل الكنيسة التي حاربت العلم والعلماء كالإسلام؟ وهل موقف الإسلام من العلم مثل موقف الكنيسة؟ وهل حارب الإسلام الحرية الدينية مثل الكنيسة؟ وهل الإسلام الذي يجعل مداد العلماء كدماء الشهداء يحارب العلم؟

لقد ساقوا هذه المصطلحات وغيرها ونقلوا المشكلات من أوروبا إلى العالم الإسلامي؛ فنادوا بإقصاء الدين عن الحياة مثل أوروبا، وجعلوا الدين والعلماء رموزاً للتخلف، مثلما جعلت أوروبا الدين ورجال الدين عندهم رموزاً للتخلف، فصار العلماء والدعاة هم رموز التخلف والرجعية والظلامية... وينبغي أن نتخلص منهم كما تخلصت أوروبا من رجال الدين عندها؛ لننهض كما نهضت أوروبا!

البيان: قلت في أحد المؤتمرات بدار العلوم: إن المسلم المعاصر يواجه مطالب بأن يكون بلا إسلام وبدون هوية أو ثقافة ذاتية وبلا خصوصية؛ فماذا تقصد بذلك؟

▪ إن العالم كله الآن يطالب المسلم بأن يكون ممسوخ الشخصية والهوية، ولا عقيدة له، بل يكون تابعاً لما يمليه عليه الغرب، أو أن يكون متعصباً ومتطرفاً ويتهم بالأصولية؛ فإما أن تكون معنا أو أنك متطرف ومتعصب.

فكيف أربِّي الشباب على الحصانة ضد هذه الاتهامات؟ وكيف أربِّي المسلم على أن يكون صاحب شخصية، وله هوية يعتز بها وثقافة يؤمن بها، وله مطالبه المشروعة؟ فهذا كلام أؤمن به تماماً، فأمريكا ماذا تطلب منا؟ وما مفهوم العولمة أو ما أسميه القولبة؟ فهم يريدون مسلماً بلا إسلام وبلا قرآن وبلا ثقافة، أليس يزرعون فينا من يطالب بالفرعونية والآشورية...؟ ومن ثَمَّ أليست فكرة الأقليات والدفاع عنها من صنع أمريكا، وكذا فكرة حقوق الإنسان وتأليب النصارى...؟

فلا بدَّ من أن يجتمع علماء الأمة في الجانب الشرعي والعلوم الإنسانية؛ ويضعوا المناهج التي تبني الطالب على الاعتزاز بدينه ولغته وثقافته وهويته ويضعوا لهذه المناهج مفردات تدرَّس للطلاب بداية من المرحلة الابتدائية. فالمسلم الآن يُطالَب بأن يكون تابعاً سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وهذا ما يجب أن تتصدى له مناهجنا وعلومنا، وما يحتم على علماء الأمة أن ينهضوا بمسؤولياتهم؛ حتى لا يتعرَّض المسلم في ظل التحديات الراهنة للمسخ أو التشويه.



(1) أخرجه أبو داود في سننه، رقم (٤٢٩٣).